دراسة التسامح الدينی فی أشعار إلياس فرحات

حسن مجيدی*
طيبة شكوهی**

تاريخ الوصول: ۱۳۹۰/۱۰/۵هـ ش
تاريخ القبول: ۱۳۹۰/۱۱/۱۰هـ ش

الملخص

مـدح النبیﷺ أحـد الموضوعات القديمـة التی اهتم الشـعراء بها. أنشـد فی العصر الحديث، بعض من شـعراء المهجر النصرانی قصائد فی مدح النبیﷺ خاصة إلياس فرحات، ودعوا العرب إلی التسامح والأخوة والوحدة. مـا هی الأفكار والدوافع التی أدّت إلی مدح النبـی؟ فی الحقيقة يعتقد بعض شعراء المهجر بوحدة الأديان، و لهذا يكرمون الرسول ويمجدونه فی شعرهم و نثرهم. يجعل هؤلاء الشعراء حب الوطن دينهم و العروبة محوره.

يعتبر التسـامح الدينی فی أشـعار إلياس فرحات رفضا للتعصب والجمود، وهو من العناصر البارزة فی أدب المهجر. يمجّد فرحات دين الإسـلام لأنّ هذا الدين أنشأ أثرا كبيرا فی توحيد الملل. كما أنّه يقدّم العمل الخير علی فرائض الأديـان، ويری أن الإسـلام حقّ، علی الرغم أنّه نصرانـی متمرد علی طقوس الدين المسيحی.

الكلمـات الدليليـة: إلياس فرحات، الإسـلام، وحدة الأديان، التسـامح الدينی.

*. أستاذ مساعد بجامعة تربيت معلم فی سبزوار ، ايران. Majidi.dr@gmail.com
**. ماجستير فی اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت معلم فی سبزوار، ايران.

المقدمة

التســامح فى اللغة من ســامَحَ فى الأمر: ســاهلهُ ولاينهُ ووافقهُ على مطلوبه، والتسامح فى الدين بمعنى التساهل فيه. (معلوف، ١٣٨٤ش: ٣٤٩)

لعــل المهجريين هم، أهَّم فئة من رجال الفكر العربى الحديث تلك الفئة التى نشرت معانى التسامح والتسامى فى الدين، وجعلت لذالك نصيبا كبيرا فى الأدب.

التسامح الدينىّ حرية فى التفكّر، والتعبير، والمناقشة، والتفسير لشوؤن الدين، بعيدا عن روح التعصب والجمود والتســليم الأعمى. أول من جهر من المهجريين برأيــه الصريح فى الدين ورجاله، "جبران خليــل جبران" و"أمين الريحانى" على الرغم من الاختلاف الكبير فى المنحى الفكرى لكل من هذين الأديبين فقد كانا على رأى واحد فى سذاجة المعتقدات الدينية الطائفية التى نشأ أهلهم عليها فى الوطن. هؤلاء المهجريون يؤمنون بــالله، ويدعون إلى الإيمان به، ولكنهم لايرونه بعيون المعتقدات المذهبية التى نشــأوا عليها فــى طفولتهم بل يرونه أبا لجميع مخلوقاته على السواء، يحبون أن يراه جميع الناس كذلك مهما اختلفت مذاهبهم وطوائفهم فلا فضل لذى ملة منهم على ذى ملة أخرى، ولا تفاوت بينهم أمامه.

نجــد كذلك أدباء المهجر الجنوبى كارهيــن للتعصب الدينى الذى مزّق وحدة أوطانهم، فنرى المســيحى والمسلم يشتركان معا، فى تكريم ذكرى مولد الرسول ويمجدونه فى شعرهم ونثرهم، ونراهم جميعا يؤمنون بأن الدين، لم يفرّق بينهم ما داموا إخوانا فى العروبة واللسان والوطن وبأن الرسول مفخرة للأمة التى نشأوا فيها.

يعتبر إلياس فرحات وشــعره معلمين من معالم شــعر المهجــر الجنوبى. إنه شــاعر لبنانى ولد فى قرية كفرشــيما وتلقى دروســه الأولى فى دير القرقفة وفى ســنّ العاشره ترك المدرسة وراح يتدرب على المهن اليدوية علّه يجد فيها طريق النجاح فى الحياة. فى ســنة ١٩١٠م هاجر إلى البرازيل وانضّم إلى أخويه "وديع وسعيد" فى ولاية ميناس. قد اشترك مع توفيق ضعون فى إصدار مجلة "الجديد" ثم فى تحرير جريدة "المقرعة" التى أنشــأها سليم لبكى. لم تستقر حياة فرحات فــى مكان واحد، فهو يملك روحا لاتعرف الاســتقرار أو الهــدوء، فتراه ينتقل بعد زواجــه أيضــا من مدينة إلى أخــرى ومن ولاية إلى ولاية ومــن عمل إلى عمل. واستمرت حياة فرحات على هذا النحو؛ معاناة ومشاق من أجل العيش فى المهجر

وعذاب وآلام من أجل واقع أمته وتناقضاتها ومشاكلها وأطماع المستعمر وبشكل خاص قضية فلسطين حتى يومنا الحاضر. اتسمت حياة فرحات بالحرية منذ طفولته، حرية التفكّر وحرية التصرف، فشّب مطبوعا عليها، وكان أن غذتها بيئة البرازيل بما فيها من مفاهيم جديدة، ورفدتها بيئة المهاجرين العرب بما فيها من تناقضات وآراء مختلفة، وأنضجتها مشقات الحياة التى عاناها منذ نزوله أرض المهجر، فأصبحت هذه الحرية دينه وأهم مبدأ عنده. آثاره شامل، عدة دواوين شعرية: الرباعيات، ديوان فرحات، أحلام، الراعى، عودة الغائب، فواكه.

موضع إلياس فرحات من الدين

الدين والعروبه

نظر فرحات إلى مجتمعه العربى فوجد غول التعصب يخيم عليه ورأى أن هذا الداء صعب الشفاء بسبب كثرة المذاهب والأديان، فإذا به يتوصل إلى نتيجة جريئة فى هذا الموضوع، لو طبقت فلابد أن تقضى على هذا الغول إلى الأبد وهذه النتيجة هى عملية تمازج بين أتباع الأديان عن طريق الزواج حيث يقول:

زوج بنيك بنات ناس دينهم بسهام سورته لدينك رام
وازفف بناتك فى المذاهب كلها للمؤمنين وعابدى الأصنام
واقرن بهذا الجبل بطرك تابعى عيسى بشيخ مشايخ الإسلام
حتى إذا نفث التعصب سمه منعت أذاه وشائج الأرحام

هو فى هذا إنسانى يسمو فوق تلك الحدود والفواصل الوهمية، إذ يؤمن أن المسلم يطلع إلى الحياة مسلما لإن أبويه مسلمان، والمسيحى، واليهودى، والبوذى، وعابد الأوثان، وكل هولاء ليس لهم الخيار فى انتقاء الدين الذى يريدون، فلماذا تعمهم الأحقاد والبغضاء والعداوات!

نظر فرحات إلى بلاده، فوجدها فريسة فى يد الأتراك أولا، ثم نهبا مقسما بين الفرنسيين والإنجليز أما أبناء وطنه الصغير (لبنان) فوجدهم مشتتين، المسيحى يكره المسلم، والمسلم يكره المسيحى، المارونى يحارب الدرزى، والدرزى يحارب المارونى يبادله حقدا بحقد.

إنّ معالجة فرحات لقضايا مجتمعه تنطلق من مفهوم رئيس هو أن العرب

أمة واحدة ذات أصل واحد ويجب أن يعيشوا متفاهمين لاتفرق بينهم الحدود أو القيـود أو المذاهب أو المعتقدات ولابد أن يكـون الوّد والإخاء يحكمان علاقتهم كمـا تحكمها الواقعية والأعمال الطيبة. أما الدين فهو علاقة خاصة بين الإنسـان وربّـه، لهذا ركز كثيرا على قضية اختلاف المذاهب والأديان فى الوطن العربى، إذ شعر أنها عقبة كأداء فى سبيل خلق مجتمع عربى إنسانى متطور، يشعر الفرد فيه بكيانه كاملا مادام يقدم ما عليه من واجبات تجاه هذا الوطن:

فيـم التقاطع والأوطـان تجمعنا　　قم، نغسل القلب مما فيه من وضر
مادمت محترما حقى فأنت أخى　　آمنـتَ بـالله أو آمنـتَ بالحجر

(المصدر نفسه: ٤٩)

أما العروبة، هذا الاتجاه الذى تمسـك بـه فرحات ودافع عنه، فقد فهمها فهما إنسانيا وطنيا فهما رابطة تربط أبناء العرب كلهم وتشدهم بعضهم على بعض على الرغم من كل الفروق والاختلافات فهمها وسـيلة للقضاء على التعصب وإذابة كل حـدود الوطن العربـى المصطنعة التى أوجدتها الأيدى الأجنبية ولنسـتمع إليه يصور العروبة أمّا تضم جميع أبنائها تحت جناحيها دون أى اعتبار لدين أو مذهب أو عقيدة أو إقليم، ماداموا يحمون حماها ويذودون عنها:

ليسـت عروبتنـا طقـوس ديانة　　ليسـت تميز أحمدا عن بطرس
تذكـى الجهالة بالتعصـب نارها　　كل البنـات لـكل طالـب زوجة
فـالأم ترعـى بالسـواء صغارهـا　　لا شـأن للأديـان فى تشـريعها
لا ديـن يعبد عن بثينـة جارها　　أجـواق يهـوه مثلـت أدوادهـا

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ٢٧٠)

هجوم فرحات لرجال الدين

أمـا رجال الدين، وخاصة المسـيحى، فلهم عند فرحـات النصيب الأوفر، فهو لاينساهم فى أية مناسبة يتكلم فيها على الوطن لأنهم من الأسباب الرئيسة لبلاد العـرب عامة، ولبنان خاصـة، وهذا وصف لهم من إحدى قصائده التى يتكلم فيها على حكومة لبنان زمن الانتداب الفرنسى حوالى سنة ١٩٣٤م:

ويزيدهـا حلـكاً بـروز قلانـس　　للشـر فوق سـطوحهن مراقص

أنّــى اتجهــن فثــم ويــل راصد هنّ القــدور لطبخ كل دسيســة
رحبــت وتحت ســقوفهن مقاعد مذ وزعت فى الشــرق محتوياتها
والحقــد نــار والــرؤوس مواقــد والشــرق فى دفع البــلاد يجاهد
(فرحات، الخريف، ١٩٥٤م: ١٠٩)

كان الشاعر يعانى فى وطنه الأول من الفروق الدينية والطائفية بين أبناء البلد الواحد، بل الدين الواحد وكان يرى أن رجال الدين، بما لهم من نفوذ على الناس، لايحاولون لإزالة أو كســر شــوكة هذه الفروق، بل على العكس من ذلك يزيدون نــار الحقد فى قلوب الناس، فأوجد هذا الجو فى نفســه ألما وفى روحه ثورة على رجال الدين، ظهر أثرهما واضحا فى شــعره الذى نظمه بعد مهاجرته، فهجم على التعصب بجميع أشــكاله وصوره وعلى رجال الدين الذين اعتبرهم، أساس البلاء فــى الوطــن العربى.آمن فرحات أن الأديان لايمكن أن تقــوم بالتفريق بين أبناء البلد الواحد والشعب الواحد، وإنما رجال الدين الذين يقومون بهذه الأعمال، وهذا ما جعله يهاجمهم هجوما عنيفا وينعتهم بأقبح النعوت فى قوله:

لاتجعلــوا آلــة التفريــق دينكم فالدين عن وصمة التفريق معصوم

يقول فى إحدى قصائده، مهاجما رجال الدين المسلمين والمسيحيين:

ســيزول جيــل فاســد متعصب متأثــر علمــاءه الجهــلاء
لايفهمــون الديــن إلا جبــة وعمامــة وتنطعــاً وهــراء
ان يخســر الوطن اللــواء وأخته وســواهما فالأمــر ليــس بــلاء
أمــا إذا نقــض الوضــوء، فنكبــة ذرى الجبــال وتغمــر الأوداء
ما وحدهم ســبب البلاء فأن فى أديــار لبنــان، لهــم، شــركاء
(المصدر نفسه: ١٣٣)

تمجيد الإسلام والفخر بالعرب

كان مــن الطبيعى أن يتحول حب فرحات للعروبة وتقديســه لها، إلى الفخر والاعتزاز بالإســلام، وذلــك لما لهذا الدين من أثر كبير فــى العرب والعروبة وفى اتحاد الملل، هذا يبدو فى قصيدته (يارسول الله) التى يقول فيها:

غمـر الأرض بالأنـوار النبـوه كوكـبٌ لم تدرك الشـمس علوّه
بينمـا الكـون ظـلامٌ دامـس فتحـت فـی مكـة للنـور كوّه
إن فـی الإسـلام للعـرب علـی إن فـی الإسـلام للنـاس أخوّه
فـادرس الإسـلام يـا جاهلـه تلـق بطـش الله فيـه وحنـوّه
ما وحدهم سـبب البلاء فأن فی أديـار لبنـان، لهـم، شـركاء

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ٨٠)

يقول مفتخرا بالعروبة والأصل العربی والزعماء الأحرار المخلصين:

نحـن مـن يعـرب ويعـرب تاج صاغـه الله مـن ثميـن الجواهر
نحـن منـا محمـد و علـی نحن منا شـكری وعبـد الناصر

(فرحات، مطلع الشتاء، ١٩٥٤م: ٤٣)

من شعره فی تمجيد الإسلام قوله:

سـلام علی الإسـلام أيام مجده طويل عريض يغمر الأرض والسما
نمـا فنمت فـی ظله خيـر أمة أعدت لنصر الحق سـيفاً ومرقما

(الناعوری، ١٩٥٩م: ٥٦٣)

التسامح الدينی

الف. تقديم الخير علی الفرائض وتقديس العقل

قد آلمه ما كان يراه من تفرق فی وطنه نتيجة اختلاف الأديان، فصرخ صرخة عنيفة، داعيا لعمل الخير والصلاح وترك أمور الدين للخالق:

دع آل عيسـی يسـجدون لربهم عيسـی وآل محمـد، لمحمـد
فيوحـدون ويشـركون جهالـة والمـوت يخلط مشـركاً بموحد
أنـا لاأصـدق أن لصّـا مؤمنـا أدنـی لربـك، من شـريف ملحد

(فرحات، الرباعيات، ١٩٥٤م: ١٥٨)

فهـو مرجئی فی فهمه للأديان، يترك البتّ فی أمرها للخالق تعالی، فهو الذی يحكم علی البشـر وليس البشـر أنفسـهم. كما أنه يقدّم عمل الخير علی فرائض

الأديان، أما الوطن والعروبة، عند فرحات، فهما مقدمان على الدين فإذا تضاربا مع الدين فهو لاشك متخل عن دينه فى سبيل عروبته ووطنه ويقول:

إذاالشيخ والقسيس لم يكرما النهى وأحكامــه، فليبرأ الديــن منهما

إذا أنــت أديــت الفرائــض كلها ولم تحو حسن الخلق، لم تك مسلما

ويقول:

كافــر يعشــق المــكارم، خيــر مــن لئيم يغــوص فــى الإيمان

ويطلب من مواطنيه وأفراد أمته ترك الفروق الدينية ونسيانها، وتحكيم العقل، فى كل أمر من الأمور، وذلك من أجل قيام مجتمع عربى متماثل:

أيهــا الناس قــد منحتــم عقولا ليــس ترضى بما ســوى البرهان

عــززوا الحب فى البلاد إذا شــئ تــم تروهــا تعــزّ بالعمــران

(فرحات، الربيع، ١٩٥٤م: ٢٧٨)

هو فى هذا يقدّس العقل و يرفعه فوق كل شىء، حتى الكتب السماوية، و كل ذلك من أجل وطنه ومواطنيه.

ب. التمرد على طقوس الدين المسيحى

أما الدين فقد فهمه خاصة بين الإنســان وربــه، وآمن بجوهر الأديان ومنبعها الأصلى، ولكنه تمرد على التخريجات والقشور والطقوس البالية التى يلصقها رجال الديــن بها لمصالحهم الخاصــة، وقد أظهر تمرده هذا فــى تناوله لطقوس الدين المسيحى، حيث رفض كثيرا منها لعدم ملاءمتها العقل، وشعوره أنها ليست ذات أثــر فى الدين أو فى أخلاق النــاس. ويكفى أن نعلم أنه تمرد على أحد الطقوس المهمة فى الدين المســيحى وهو تعميد الأطفال، ورفض تعميد أبنائه على الرغم مما تعرض له من حملات من الأقارب ومن رجال الدين، وذلك لعدم اقتناعه بها.

وعلى الرغم من أرتوذكسيته ونصرانيته فإنه لم يكن يؤمن قط بدين، غير دين العروبة ولم يشأ أن يخضع عقله لسلطان المعتقدات والطقوس الدينية:

الديــن قلــبٌ نقى لا اتصــال له بالملــح والزيــت والتعزيم والهذر

(فرحات، الرباعيات: ٥٤)

ج. الهجوم على صور القديسين

لــم يقــف فرحات عند حد فی مهاجمة ما اعتبره قشــورا باليــة، فهاجم صور القديسين والاعتقاد بها، كما هاجم التماثيل الدينية وتهكم على رجال الدين فی تنظيم طقوس الدينا:

هام القسوس بتنظيم الطقوس وما فيها من الدين غير الزهو والترف
قد صيروا الدين فی الدنيا كلؤلؤه مطروحة تحت أكداس من الصوف
وشــر مــا فعلــوه أنهــم فتحــوا بابــا يفــر إليــه كل معتــر
مادام من يعتــرف تغفر خطيئته ماذا على اللص أن يسرق ويعترف
(فرحات، الرباعيات، ١٩٥٤م: ٩٣)

لايعرف فرحات المذهبية فی الدين، ولا يؤمن بمظاهره و طقوسه، لأنَّ الدين عنده فی القلب النقی وحده ولا علاقة له بما يضيفه إليه أصحابه من مراســيم و طقوس وانقســامات. وهو لايتصور مطلقا أن يكون الدين سببا للتفريق بين أبناء الأمــة الواحدة أو أبناء الإنســانية عامة. ليس فرحات بيــن العرب أول من حمل علــی رجال الدين وعلى تعدد المذاهب واختلاف الطقوس فعندنا أيضا من هؤلاء فارســان آخران جليان وهما جبران خليل جبران وأمين الريحانی، ولكن فرحات بلا شــك من أعنف من هاجموها ومن أكثرهم تصلبا وتطرفا. لعل الســبب الأكبر فی كراهيته لهم، هو ما رآه فی وطنه لبنان من انقسامات دينية كانت نكبة كبرى على وطنه؛ فلم تكن مذبحة عام ١٨٦٠م، لتقع فی لبنان لولا اختلاف الدين ولم تكن فرنســا لتنجح فی لبنان لولا تعلق قســم من اللبنانيين بها باسم الدين، وما تزال التفرقة الدينية إلى الآن سبباً قوياً فی ضعف الشرق العربی وانقسام أهله على أنفسهم وفساد نظام الحكم. (الناعوری، ١٩٥٩م: ٤٨٩)

النتيجة

نفهــم من خلال أشــعار فرحات أنّه لايعــرف المذهبية فــی الدين، ولايؤمن بمظاهــره، لأنّ الدين عنده فی القلب النقــی وحدة وهو لايتصور مطلقا أن يكون الدين ســببا للتفريق بيــن أبناء الأمة الواحدة، وعلى الرغم من أنه مســيحی فی مولده ونشــأته، إلا إنه لايمارس طقوس الدين نفســه. هو يمجد الإســلام ويرى

لهذا الدین أثــرا کبیرا فی العرب والعروبة وفی اتحاد الملل. الوطن والعروبة عنده مقدمان علی الدین، فإذا تضاربا مع الدین فهو لاشــك متخل عن دینه فی سبیل عروبتــه و وطنه. یعد فرحات بلاشــك أعنف من هاجم علی رجــال الدین و لعل الســبب الأکبر فی کراهیته لهم، هو ما رآه فی وطنه لبنان من انقســامات دینیة، کانــت نکبة کبری علی وطنه، و ما تزال التفرقة الدینیة إلی الآن ســببا قویا فی ضعف الشرق العربی وانقسام أهله.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی